

الأصول التاريخية للموقف العربي من النظريات العرقية والطبقية

د : عبد ضمد الركابي *

مقدمة :

أفرزت حركة تطور المجتمع عبر مسيرتها التاريخية عدداً من العضلات الاجتماعية الخطيرة التي استمرت تثقل كاهل الإنسانية بأعبائها وتلحق الضرر الكبير بحياة العنصر البشري وتعرض نتائج كفاحه المتواصل الى الضياع، وتؤدي بحصيلة الخبرة والمعرفة الانسانية المتراكمة الى الهدر من خلال اضعاف عملية صراع الانسان مع الطبيعة من اجل السيطرة على قواها وتسخيرها لصالحه، بتحويل دفة الصراع الرئيسي بين الانسان واخيه الانسان . وتتوخى في هذه الدراسة معضلتين او ظاهرتين رئيسيتين وثالثة تقترن بهما في بعض الاحيان اشعلتا تاريخ البشرية بنيران صراعهما وملأتا صفحاته بمأس وآلام انسانيه، هاتان الظاهرتان هما الطبقيّة (Stratification) والعنصرية (Racism) وما يقترن بهما من التعصب المذهبي احياناً . ولاستكمال مستلزمات الدراسة اصبح من الضروري اتساع مقدمتها الى عدد من الفقرات التي تسهم في ايضاح بعض المفاهيم الهامة التي يتكرر ذكرها . فالحديث عن التمايز الطبقي والتفرقة العنصرية والمذهبية ومنشأ الحضارة وانبثاق الحضارة العربية، ومتانة الخلق العربي عمل يتطلب ايضاح عباراته وتحديد معاني مصطلحاته ومسببات ظواهره العرقية : Racism

عبرت المدرسة الاثنولوجية عن مفهومها في النظريات العرقية (Race Theories) باعتقادها عن اساس الحياة الاجتماعية . فهي ترى ان وحدة الجنس هي الاساس في الحياة الاجتماعية (١) وبالتالي فان كل جنس في اعتقادها يتميز بخصائص جسيديه وذهنية موروثه و يختلف في مواهبه وقدراته عن الجنس الآخر وهو ما يسميه علماء الاجتماع بـ «المميزات الشعبوية» (٢) . فالمجتمع الانساني على هذا الرأي خليط من عدد من الاجناس التي تتفاوت في خصائصها وفضائلها، ففيها الجنس الراقي الموهوب حامل بذور التقدم والحضارة وفيها الجنس الخسيس الذي تنعدم فيه كل المؤهلات . ومن هنا جاء تقسيمهم للاجناس معتمدا على عدد من المعايير التي تتخذ من الفروق

* استاذ الاقتصاد بجامعة البصرة

الفيزيقي «الصفات الجسدية» أساسا لتقييمها سالكة طريق تفرقة متعصبة بين الاجناس

وترجع الجذور التاريخية لهذه النظريات الى عصور الحضارات القديمة كما سيرد تفصيل ذلك . وقد كان الاعتقاد بهذه النظريات سابقا من اجل تبرير النظام الاجتمعي المتناقض في الامبراطوريات القديمة . وكما نعتقد ان المفهوم الحديث للتفرقة العنصرية «الصهيونية/الامبريالية» والتي تقوم على اساس تبرير حكم الطبقة بأسباب عرقية، ومن ثم افتعال انتاج مفاهيم متناقضة كالدماج المصطنع بين العرق والدين، وبين القومية والطبقة، وبين القومية والامية (٢) هذه النظرية تعود اصولها الى حضارات العبودية والاقطاع حيث تستند الى فكرة الدماج بين العرق والطبقة من خلال اقامة علاقة جدلية بينهما، فتكون هناك قبائل من عرق معين محتكره للسلطة تميز نفسها بعرق سامي تعتبره ارقى من بقية الاجناس وتكون سلالة هذا العرق طبقة وراثية للامتيازات . ففي سبيل المثال يؤكد ارسطو على تميز الشعب اليوناني دون غيره من الشعوب بقوة العقل والجسد . ويذهب الرومانيون الى مثل هذا الاعتقاد فيوسعون امبراطوريتهم ويحاولون ان يحكموا العالم بأسره (٤) . واذا العلم الحديث قد رفض نظرية التفوق العنصري والتوصيل الى عكس نتائجها فانه اثبت ان الجنس الخالص النقاء وان لم يكن كاملا فانه كشف ان المجتمع الذي تجنب الاختلاط والتمازج تعرض الى التأخر والركود الفكري والمادي ولم يسعفه اصله او عرقه الذي ادخله اصحاب نظرية الجنس بصف الاجناس الراقية امثال نيتشه وسبنجلر وغيرهم .

الطبقيّة : Stratification

ينسب علماء الاجتماع والاقتصاد الاشتراكي ظهور الطبقة ومن ثم النظام الطبقي الى ظهور الملكية الفردية لأول مرة في التاريخ بعد انحلال المشاعية البدائية وحيث أصبح بين الجماعة فئة مالكة لوسائل الانتاج واخرى مجبرة للعمل الاجبر تحت ادارتها وسيطرتها. وجاء في التفسير المادي للتاريخ ان هناك طبقتين في اي مجتمع ومرحلة تاريخية يحددهما موقع كل منهما من الانتاج (٥) ومما يتقدم يظهر ان اصل الطبقة ومن ثم النظام الطبقي يرجع الى الاسباب الاقتصادية القائمة في المجتمع (٦) وان موقع الطبقة من الانتاج هو الذي يحدد صفاتها الطبقيّة كونها اجبرية تؤدي العمل الاجتماعي او مالكة لوسائل ومن ثم يترتب على مركزها الاقتصادي او المهني وضعها الاجتماعي كونها مجموعة تعيش في ظل ظروف مادية وثقافية متشابهة تملي عليها واقعا نفسيا وفكريا متقاربا يقترن بوجود قيم اجتماعية ومعايير خاصة تميزها عن غيرها من الجماعات الاخرى مما يجعلها بشكل طبيعي منغلقة على نفسها (closed Class System) الا في مجال القوانين العامة .

و ينتج عن اوضاعها المتشابهة بروز تنظيم اجتماعي (Social Organiz ation) يعبر عن تضامنهم ووحدة مصالحهم و يرفع من درجات الوعي الطبقي (class consiousness) بين صفوفهم مما يزيد درجة تضامن الجماعة وانسجامها فكريا عبر ايدولوجية سياسية تجسد مصالحها المادية وتحدد مواقفها من الجماعات الاخرى او الطبقة الحاكمة . ومع الاسلام بوجود مستويات متعددة ضمن حدود الطبقة ومن ثم وجود اختلافات ثانوية فانها تندرج تحت السمات العامة للطبقة . وعلى ضوء هذه الاسس العامة للطبقات تظهر المصالح الطبقيّة بقيتا متعارضة في الانظمة الاجتماعية مما يولد صراعات داخلية في المجتمع وتمارس الطبقة المستغلة كفاحا طبقيّا (Class struggle) ضد الطبقة الحاكمة كما تدخل الطبقة الحاكمة بدورها بالاضافة الى صراعاتها الداخلية في مجتمعتها ساحبة المجتمع باكملها الى صراعات تناحرية مع المجتمعات الأخرى كما تقتضيه استمرار مصالحها سواء في الحضارات القديمة لامداد اقتصادياتها بالعبيد (من الأسرى) واتساع رقعة استثماراتها او ما شهده العصر الحديث من اشكال الاستعمار القديم والحديث بالاستيلاء على ثروات الشعوب . وفي كل الحالات يتعرض العنصر البشري الى الخسائر المادية والمعنوية سواء داخل المجتمع الطبقي نفسه او خارجه، وسواء تمثل ضرره في درجه الاستغلال والاضطهاد القومي أو في تبيد الثروة القومية للشعوب وحرف مسار التطور الحضاري وتضييع الجهود الحضارية .

نظرة الى منشأ الحضارة

لاشك ان البيئة الطبيعية تائثراً كبيراً على سير عملية التطور (٧)، وان في هذا المجال عددا مهما من الآراء المتعددة، لكننا أثّرنا هنا الاشارة الى آراء متقدمة ورائدة سبقت الجميع للعلامة العربي ابن خلدون (٨) وآخر معاصر للمؤرخ الانكليزي ارنولد توينبي (Toynbee) بصدد نشوء الحضارة الانسانية وتطورها (٩)

كتب العلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة عن أثر البيئة الطبيعية على نشوء وتطور الحضارة، وحدد المنطقة العربية الحالية مع امتدادها حتى بلاد الصين — مركزا على شمال الجزيرة العربية بما فيها العراق والشام — والتي اطلق عليها (بالمنطقة المعتدلة) باعتبارها مهد الحضارات الانسانية العظمى ومهبط الرسالات السماوية ذلك عبر تحليل عميق يعتمد على قوة العامل الايكولوجي في النمو الحضاري (١٠)

فيرى ابن خلدون انه قد يضطر كل شعب التماسا للمحافظة على بقاءه وورثائه الى استثمار كل ما تدمهم به ارضهم وزمانهم من خيرات (١١) او يصيغ للمؤرخ توينبي

فكرته في نشوء الحضارة وتطورها تحت عبارة التحدى والرد على التحدى . فالبيئة الطبيعية والاجتماعية تتحدى الانسان والانسان لكي يستمر في البقاء ولكي يتطور لابد من ان يرد على التحدى رداً يناسب امكانياته . وعلى هذا الردي يعقد توينبي اهمية كبيرة. «ان نمو الحضارات وتفككها يرتكزان على احوال واتساع الردود - نجاحها واحقاقها - والى التحديات الموجهة من البيئة الطبيعية او الاجتماعية» (١٢) ويتجاوز ابن خلدون آثار البيئة الطبيعية على الجانب التقني في تطور الحضارة الى قدرات الانسان الذهنية، فيذكر أن البيئة الطبيعية الخصبة الدائمة الزرع والتي لا تحفز الانسان على المثابرة والكفاح الدءوب والتفكير المبدع واصفا سكانها بالبلادة «فانا نجد اهل الاقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف اهلها غالبا بالبلادة في اذهانهم والخشونة في اجسامهم» (١٣) ووفق هذا الرأى تمارس البيئة الطبيعية والاجتماعية باستمرار تحديات للانسان تتفاوت في حدتها، فالصحراء المجربة والبحار العظمى والانهار الجامحة تقف حائلا امام سعي الانسان في الحصول على خيراتها . ولكي ينتزع من بين احضانها ثرواتها المنيعه لابد من الكفاح والصبر امام هجماتها باتخاذ الاجراءات الاصلاحية والوقائية للتقليل من شدة غلوها، ثم لابد بعد ذلك من زيادة الامن وتحقيق التقدم، أى الارتفاع الى مستوى الرد الملائم ثم الرد المبدع بعد توفير مستلزمات الصراع المتكافئة لكبح جماحها وترويضها من اجل تيسير استغلال مواردها .

فالمناطق التي حددها ابن خلدون - الارض العربية (١٤) - لا توفر للانسان عيشا من دون استخدام كافة قدراته الجسديه والذهنيه بل تمهد لانسحابه اذا ما تهاون في اتخاذ الردود المناسبة، ومن هنا تنبثق ضرورات تطوير تقنياته من اجل تحصين مواقعه والانتقال الى مواقع أعلى في اطار صراعه.

شئ هام نؤكدده هنا هو العامل الذاتى في نشوء الحضارة وتطورها والذي يتمثل بالانسان . فالعوامل الطبيعية في البيئة العربية من لقاء الصحارى مع البحار ومع الأنهار والبحار فيما بينها ومنعة الموارد والاعتدال في المناخ - الذى يشير اليه ابن خلدون - هذه الميزات جميعها توجد مثيلاتها في مناطق اخرى من انحاء العالم لكن ليس كل صحراء مهبطا لرسالات السماء وليس كل نهر صانعا لحضارة كبرى كالحضارات المصرية والعراقية القديمتين ... الخ (١٥) وقد يقول قائل ان البيئة في هذه المنطقة قد اعدت الانسان جسديا وعقليا لممارسة العمل الحضارى، ومهما كان الجواب واختلف التحليل فاننا نؤكد على توافق قدرات الانسان العقلية مع الظروف الطبيعية والاجتماعية مما يوفر فرصة امامه لاستخدام افكاره وتطوير خبراته ولعل هذا الجواب يصلح للرد على المتحاملين الغربيين الذين اتهموا العقل العربى بالبساطة والسطحية وهو منتج اعظم حضارة انسانيه (١٦) فليس هناك رد مبدع بدون قدرة ذهنية كبيرة لدى الفرد او الجماعة، سواء

كان الرد على تحديات الطبيعة ام المجتمع . وما كان الانبياء الذين احدثوا في عصورهم تلك التحولات العميقة في الفكر والمجتمع الا عباقره ومثلهم عظماء التاريخ . وقد جسدت عبقرية النبي محمد في عصر التاريخ طاقات كل العرب، فكانت ابداع رد على تحديات المجتمعات الجائرة التي ساد ظلمها العالم فترات طويلة، فانتج للعالم حضارة انسانية (الاسلام) لاعهد للبشرية بها .

عوامل انسانية الحضارة العربية

لم يقتصر اثر العوامل الطبيعية الماثلة في البيئة العربية على الجانب التقني في الحضارة العربية، انما تمثل اثاره باستمرار الى الناحية الخلقية في الانسان . فاشكال نظم العمل في البيئة العربية الصحراوية الاولى، كانت مقترنة بقيم اجتماعية وانماط في العيش وعلاقات اجتماعية اساسها التعاون والعمل الجماعي وما توجده هذه الصيغ من تنظيم اداري ديمقراطي يمتد افقيا وليس هرميا في تسلسله الوظيفي . فورث العنصر العربي التقاليد الاولى التي تفتح عليها خضم العمل الاجتماعي الذي واجه من خلاله تحديات البيئة، وكانت اثارها ايجابية في الجانب الوراثي . فطبعت السجايا الخلقية العربية بالقيم البشرية الخاصة وظلت تتراكم عبر العوامل الوراثية مستقرة فترات طويلة في البيئة العربية، بحيث اصبح عاملا رسوخ الخلق العربي وعناصره الايجابية من اهم العوامل التي منحت الحضارة العربية قدرة على الصهر والتفوق الحضاري . فالاستعداد الكبير لدى الروح العربية على الامتزاج والتفاعل السريع مع العناصر الاخرى منذ المنشأ الاولى جعلها تتخطى الحواجز المادية والنفسية القائمة بين القبائل داخل البيئة العربية وهذا العامل الاخير كانت له اثاره العميقة على تغيير (وحدات الوراثة لدى الانسان) فانعدام الحواجز المادية والنفسية - بين عناصره التي تصطنع العديد من القيود بين امتزاج طبقات المجتمع - تسهل من عملية تطويع الصفات الوراثية الى الامام بما يخدم مسيرة التطور (١٧)

وقد حافظت الظروف الطبيعية وانماط الحياة الاجتماعية الثلاثية معها او التي نشأت في ظلها على استمرارية هذه المزايا وظل ينقلها العرب اينما حلوا . يقول الاستاذ لوبون « بيد انه توجد صفات نفسية، وان شئت سجايا خلفية، كانت ثابتة الصفات التشرىحيه وانه سيأتي يوم تكون فيه هذه الصفات النفسية التي اغفلها علم اوصاف الانسان الحديث، اساسا لتقسيم العروق (١٨) ولرأى لوبون في تأثير البيئة الطبيعية العربية على انسانها اهمية كبيرة كونه ناتجا من دراسة معمقة للبيئة العربية ومدعومة بدراسات اخرى تستند الى تجارب واقعية وبحوث ميدانية، فيقول في هذا الصدد (ان العالم لم يعرف قطرا طبع بجوه وارضه طابعة على شعبه كما طبعته جزيرة العرب بجوها وارضها طابعتها على من يسكنها من الاهليين (١٩) وظلت الجزيرة العربية قبل وبعد التحول الاجتماعي والفكري الكبير (الاسلام)

منبعها للتقاليد الانسانية تمد الاقاليم التي سكنها العرب واصبحت مناطق اختلاط بالقيم المذكورة من خلال الصلات والاواصر التي استمرت عبر مؤسسة الخلافة والمركز الديني والحياة الاجتماعية والتي ظلت - أى الجزيرة العربية - بعيدة عن اية تقاليد غازية في كل العصور .

جوهر النظام الاجتماعي للحضارات القديمة.

نشأت في الفترة التي سبقت التاريخ الهجرى واعقبته بقليل عدد من الامبراطوريات الكبرى عاصرت حضارات العرب القديمة في الجزيرة العربية حتى الربع الاخير من القرن الهجرى الاول (٧٠٨ ميلاديه) كالامبراطوريات الفارسيه والاغريقية والرومانية والبيزنطية .

كانت نظمها الاجتماعية - بالرغم من التقارب في المستوى التقني - تتباين تماما مع جوهر النظام الاجتماعى لحضارات جنوب الجزيرة العربية ووسطها، اذ كان جوهر النظام الاجتماعى للاولى يقوم على اساس نظريات العرق (Race Theories) والفوارق الطبقيّة (Class differentiation) والتي تعتمد الاساس البيولوجي في تحديد الطبقات الاجتماعية، اى الربط بين العوامل البيولوجية (كالجنس والصفات الذهنية والجسدية) وبين التمييز الطبقي وما ينتج عن الفهم من الربط بين الجنس والطبقة أو بين العوامل الوراثية والطبقة (٢٠) ويكون هدف مجمل النظام الامبراطورى والذي يمر عبر الصراعات التنافسية هو تأمين مصالح الطبقات الحاكمة واستمرارها .

حضارات فارس :

الطبقية والعرقية والتعصب الوثني كانت الملامح الرئيسية للحضارات الفارسية التي سبقت الاسلام كالامبراطورية الاخمينية ٥٥٨ ق.م والفرثيون ٢٤٧ ق.م والساسانية ٢٢٤ م (٢١) وصف المسعودى في «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الاسس الاجتماعية والثقافية التي تقوم عليها الامبراطوريات التي قامت في ارض فارس كاعتماد معيار العرق . في توزيع الوظائف الامبراطورية والادارية واتباع التقسيم الرسمى للمجتمع طبقيا ودعم هذه الاتجاهات ببناء قومي سميك من القيم التمايزية والعبادات والتقاليد الاستعلائية كاحتقار المهن واضطهاد الطبقات الاخرى . ويحتقر ذو اليسار والسلطة «ابناء الحرفيين حتى لو كانوا من العباقر»^{١، ٢} كما تفرض العبادات الوثنية على الشعوب التي تقع تحت سيطرتهم، وتمارس الطبقات العليا استرقاق سكانهم جماعيا واستخدامهم في الاعمال الجسدية ضمن شروط الاكراه المادي أو القهر (Coercion) كما يساقون الى الحروب مكرهين «فكانوا خاضعين لضرب من الرق تحت سيطرة اسياهم الاقوياء» (٢٢) وفي عصر الاقطاع كان حكام الاقاليم التي بها اقطاعياتهم

الاسلمسية(٢٣) ويشير «كر يستنس» الى التشابه الكبير في التركيب الاجتماعي للنظام الاقطاعي في الدولة البرتية الفارسية والنظام الاقطاعي الأوربي .

اليونانيون :

وفي قلب المجتمع الاغريقى تنتصب القيم الطبقيّة والعنصريّة وتأخذ مكانها في اوجه نشاطهم المختلفة حتى لتغدو اهم المقومات الرئيسيّة في حضارتهم تقرها شرائعهم ويؤكدّها فلاسفتهم(٢٤) ومن خلال نظرة تحليلية لطبيعة العلاقات الانتاجية ومن ثم الاجتماعية السائدة في المجتمع الاغريقى الاثيني او الاسبرطي تظهر العلاقة الجدلية بين الطبقة والعرق في تقسيم المجتمع، ذلك ان التقسيم الطبقي للمجتمع يستند الى نظرية العرق فتكون هناك بعض القبائل من عرق معين محتكرة العديد من الوظائف والامتيازات وراثياً، وتقف في قمة الهرم، تليها قبائل من عرق آخر يأتي تقييمها بالدرجة الثانية وهكذا حتى يقف العبيد وهم من الناحية الجنسية ينتمون الى اقوام اخرى تم استرقاقهم الا ان تناسلهم من جيل الى جيل ظل يحمل لعنة التفرقة الاصلية . وهذا التقسيم قد عمق الفوارق بين فصائل المجتمع اليوناني واوجد نظاما للطبقات شديد التمايز فدولة اسبرطة، مثلاً يتجزء شعبها الى ثلاثة اجزاء يقف الاسبرطيون في الجزء الاعلى من الهرم (Upperclass) وتنحصر فيهم القاب الشرف والمناصب الكبيرة ويعتقدون بانتمائهم الى ارقى الاجناس(٢٥) يليهم بمسافات بعيدة (البيركي) Middle Class وهم سكان الضواحي عملهم الرئيسي الحرب، فهم الجند . اما الطبقة الثالثة فتدعى (الهيلوتس) (Lowerclass) وهم العبيد من اهل البلاد الاصليين الذين كانوا تحت سيطرة اليونانيين قبل التوسع الاسبرطي و يعملون في زراعة الارض والاعمال الشاقة الاخرى و يتميزون بالنقمة الشديدة والميل للثورة . ولم يكن نتاج حضارتهم الفكرى يختلف عن واقع الحياة او ينحو الى مثل اعلى في العلاقات الانسانية، فأراء فلاسفتهم بمثابة تدعيم لمجتمعهم . فيرى ارسطو أن العبد خلق للخضوع والطاعة وعلى الاحرار ان يكثروا من اعدادهم(٢٦) ويدعو الفليسوف افلاطون الى ان يكون الرق من غير اليونانيين وحتى (المدنية الفاضلة) ثمرة الفكر اليونانى المثالي هى مدينة تضم فقط الاحرار(٢٧) وانها على مثاليتها فهي مثقلة بطبيعة الروح اليونانية (٢٨)

الرومانيون :

اعتقد الرومانيون (٧٥٣ق.م) بسمو اعراقهم و بمزايا جنسهم وطبقا لهذا الاعتقاد جاءت تقسيمات مجتمعهم الطبقيّة متلائمة مع التسلسل العرقى . فتحظى الطبقة (السيناتورية) (Landlord) بامتيازات ومراتب فريدة في

مؤسسة الدولة الامبراطورية تؤدي باستمرار الى تعميق الفواصل بين طبقات المجتمع من خلال التركيز في الملكية التي يولدها طبيعة النظام الاقتصادي في ضغطه على بقية طبقات المجتمع . كتحلي الاحرار عن ملكياتهم او التوابع (Vassals) بسبب الضرائب والتحول الى عبيد في بيوت النبلاء (٢٦) واعتبار الافراد الذين تحولوا عن طبقتهم الى مستوى العبيد (Peasants) طبقات وراثية اى يرث ابناؤهم تعاستهم و يتحدد وجودهم بالطبقة الجديدة (٣٠) ولم تغير التعاليم الصريحة التي جاء بها الدين المسيحي الذي اعتنقه الرومان على يد الامبراطور قسطنطين في اواخر القرن الثالث الميلادي، لم تغير من طبيعة النظام الاجتماعي او تقلل من حدة مظاهره الجائرة التي استهدفتها مبادئ الدين المسيحي . بل امتصت قوى المجتمع الروماني عنفوان الثورة المسيحية وافرغت محتواها الاجتماعي (٣١) وبالتالي تغلبت الجوانب الروحية في هذه التعاليم ومن ثم خلق طبقة جديدة في المجتمع الروماني قاسمت الطبقات الممتازة مراكزها وفاقت عليها هي طبقة رجال الدين واصبحت ابتداء من القرن الخامس الميلادي اكبر اقطاعية .

البيزنطيون:

اقام البيزنطيون في الشرق عام ٣٩٥ ب.م الامبراطورية المعروفة باسمهم وفق الأسس المادية للحضارات التي سبقتهم، فمارست بدء من مطلع القرن الخامس الميلادي اقطاعياتها اقصى نظم القنانة الريفية للمواطنين الاصليين البرابرة والسود المجلوبين مما وراء الصحراء الكبرى (٣٢) وظل هذا التناقض الحاد يأكل كبد الامبراطورية ويعرضها الى حالات من التدهور والتوقف الحضاري حتى هبت عليها رياح الحضارة العربية الاسلامية واستأصلت جذورها تحت ضربات الجيوش العربية الفاتحة في شمال افريقيا عام (٧٠٨ ميلادية) (٣٤) وتكون بذلك آخر امبراطورية تحمل جوهر النظام الاجتماعي للحضارات القديمة قد ازيلت من المنطقة العربية لتحل محلها لأول مرة دولة تمتلك صلة رحم وأواصر تاريخية مع سكانها الاصليين (٣٥)

حضارات العرب القديمة :

لا يوجد دليل تاريخي او مادي اكيد اثبت من خلال عملية تنقيب موضوعي للحقائق « Fact-Finding » يشير الى ان حضارات عرب الجزيرة قبل الاسلام كانت تسودها نظم العبودية أو الاقطاع بمرتكزاتهما العرقية ومظاهرها الطبقيّة، كما دلت الوقائع والآثار والتاريخ المدون عن وجود مثل هذه الانظمة في الحضارات القديمة التي جاورت وعاصرت حضارات الجزيرة العربية حتى زوالها

بافتوحات العربية الاسلامية . كما لم تحظ الدراسات التي عممت نتائجها من خلال دراستها لعدد من المجتمعات بنصيب من الصدق لافتقارها الى مثل الدلائل المشار اليها .

فالكتاب الذين حللوا اساليب الانتاج للنظم العبودية والاقطاعية في الحضارات القديمة اسباب نشوؤها ومرتكزاتها الايدولوجية اعتقدوا لاسباب ايدولوجية بسيادة نظمها في كل المجتمعات التي عاصرت المرحلتين المتتاليتين بما فيها مجتمعات جنوب الجزيرة العربية التجارية، كما يؤكد هذا الراى مجموعة من الكتاب الايدولوجيين المعاصرين من معتنقى هذا المذهب (٣٦)

الذى امكن تحقيقه ان العبودية والاقطاع كانتا انظمة ضاربة لحضارات ماحول الجزيرة العربية القديمة استخدمت الرقيق ثم القرن تحت ظروف الاكراه المادى للعمل الاجتماعى (٣٧) وانه سنحت الفرص اعلاه لتحليل علاقتها الانتاجية وهدف نظامها . وحول تركيز هذه المظاهر في تلك المجتمعات كانت اشكالها تنتشر في المجتمعات الدولية بدرجات متفاوتة من خلال العلاقات التجارية والسياسية المتعددة، فبينما تبلغ العلاقات العبودية والاقطاعية الصيغة السائدة والوحيدة في الحضارات المشار اليها لا تشغل في دول الجزيرة العربية اى أهمية او تمثل موقعا انتاجيا متميزا انما كانت نماذجها الضعيفة تنضوي تحت صيغ العلاقات الانتاجية السائدة التي تتمثل بالعمل الاجتماعى التعاوني والجماعي في اطار القبيلة في الوحدات الزراعية او المشاركة بالجهد وادوات العمل في حقل العمل التجارى سواء الخارجى الذى يتم بواسطه السفن التجارية الشراعية التى يستغلها التاجر نفسه مع مشاركة الملاح وعدد من الاقارب وعدد اقل من الاجراء من بينهم العبيد . او في التجارة الداخلية والبرية (الخارجية) والتي تخضع لنفس شروط الادارة والتنظيم المباشر للمالك ولقبيلته والعدد الاقل من العبيد الذين يعدون جزءاً من الاسرة . وبالتالي فان استقبال ظاهرة الرقيق التي فرزتها المرحلة التاريخية واستيعابها قد تم ضمن شروط العمل وعلاقات الانتاج السائدة ولم يكن لها موقع انتاجي منفصل . ويتبين مما تقدم ان لكل مجتمع موقف خاص (Attitude) تجاه شكل علاقات الانتاج التي تطبع المرحلة التاريخية، ينبع هذا الموقف من الظروف الموضوعية والذاتية لذلك المجتمع . وحسبنا ان الخلق العربى وطبيعة الحياة العربية (التي اتصفت بروح المساواة المطلقة) قد انتجت الموقف المذكور .

الرق في اثينا اوروما طبقة اجتماعية قائمة بنفسها في مجتمع طبقي يحكم حدوده الطبقيية بحدان سميكة (Closed) لا تسمح للتفاعل والتمزاج فيما بينها، فهل تشكل الاعداد القليلة من العبيد التي وجدت في مجتمعات الجزيرة العربية مثل هذه الطبقة ؟ الجواب كما بينا سيكون كلا . ومنطقيا عندما ينتفى الاعتقاد بنظرية العرق ولا ترقى الفوارق الاجتماعية الى مستوى تكوين طبقات

بسبب اسلوب الانتاج المناسب للبيئة العربية فان درجة الاستجابة لاسلوب وعلاقات الانتاج السائدة لدى حضارات ما حول جزيرة العرب ضعيفه جدا لنفس السبب .

آخر نموذج للمجتمع العربى قبل الاسلام:

في التاريخ المدون معلومات ضخمة عن العصر الجاهلي مما تغنى الباحث بمصادر تقصي الحقيقة. وليس في مقدور هذه الدراسة الا ان تشير فقط الى ما يساعد سعيها نحو الهدف .

يمكن اعتبار المجتمع الملكي الوريث المتأخر لتراث حضارات الجزيرة العربية القديمة . ففي القرن الخامس والسادس الميلادي تمكن من استقطاب حركة التجارة الدولية والمحلية في الجزيرة العربية وحقق انتعاشا اقتصاديا ملموسا في التجارة وال عمران والثقافة في اطار الانتاج الاجتماعى للقبيلة . وظل يمارس نشاطه العام ضمن اشكال وصيغ علاقات الانتاج المشار اليها غير قابل للاستيعاب اى مستوى للعلاقات الانتاجية العبودية والاقطاعية التى لازالت مستمرة في الشرق عبر نمط الانتاج الآسيوى (٣٨)

ومن حيث شكل البنية الفوقية للمجتمع المكي، كانت القبيلة عبارة عن مؤسسة ديمقراطية سجل الانسان العربى عبرها عددا من الفضائل الانسانية . ومن حيث العلاقة كانت تحدها القبيلة داخليا وخارجيا مع القبائل الاخرى وفق تقاليد وبعض الضوابط المدونة. ففي اطار القبيلة كان لا يوجد تمايز بين الافراد وكان «بامكان العربى ان يقابل شيخ قبيلته على قدم المساواة والحقوق» (٣٩) وفي مجال العلاقة الخارجية يلعب التنسيق بين القبائل دورا هاما في تماسك المجتمع المكي وبناء مقدمات الانتقال نحو دولة موحدة تنطلق من الاسس القومية للمجتمع . وتعتبر المؤسسات التي نمت في ظل البيئة العربية في هذه المرحلة مغايرة تماما لمثيلاتها التي اوجدتها حضارات ما حول الجزيرة العربية القديمة المشار اليها، ذلك ان الاولى (العربية) على ابتدائية طورها في التنظيم لكنها تعد مؤسسات ديمقراطية ومنظمات عدل وتكافل اجتماعى هى نقيض مؤسسات العبودية والقهر والاضطهاد الجسدى واساليبها البشعة في استغلال الانسان وتعذيبه التي انتجتها الحضارات اليونانية ومثيلاتها، افسيان بين «دار الندوة» وهى مؤسسة انتخابية قيادية ينتخبها رؤساء القبائل يرأسها شيخ منتخب وتمارس الحكم بالشورى فنقر العدل والسلام تحرص على التعاون، وبين البرلمانات الاثنية او الاسبرطية .. الخ التى تشرع الحقوق الطبقية وتقر الحرب والمنازعات .. الخ . وقد لا يجد غير المنتبع الدقيق معنى كبيرا للمنظمات التي افرزتها مرحلة النظام الجمهورى. كما يسمى العديد من المؤرخين بذلك فترة العصر الجاهلى المتأخر (٤٠) «كحلف الفضول»

والرفادة» وهى جزية تفرض على كل فرد لتغطية نفقات الحجاج الفقراء «راية الغدر» وهى بالفعل راية يرفعها كل فرد يتعرض للظلم فتستجاب لنصرته لجان خاصة لهذا الغرض (٤١) الا ان هذه الاشكال – مهما كانت درجة تطورها – هى نتاج حضارة ومجتمع وبالتالي فهى نموذج لا تجاه واخلاق وفكر ذلك المجتمع، وهذه المعطيات هى اول الغيث .

اما كيف كان يستوعب المجتمع العربي في هذه المرحلة امتدادات ظاهرة الرق او القنانة، فانه مما لا يصعب تصوره ان الاسرة العربية كاصغر وحدة اجتماعية امتلكت القوالب النفسية العظيمة لتقبل الآخر ين فهضمت ظاهرة الرق وذا بت بين شرائح المجتمع ولم يخلق وراءه اى آثار مؤلمة تنتقل اعباؤها بالوراثة الى الاجيال اللاحقة . اما القنانة فانها لم تولد اصلا في ارض الجزيرة العربية (٤٢) لانها تقتزن بالنظام الاقطاعى الذي يتخذ من الارض الزراعية الواسعة .

كوسيلة انتاج رئيسية فى اسلوب انتاجه وهى لم تتوفر في وديان جزيرة العرب التي لا تلائم اصلا ميلاد مثل هذه العلاقة . واذا استثنينا ممارسة اليهود وبعض النخلسين المحترفين فان الرق لا يلبث ان يصبح جزءا فاعل في الاسرة العربية التي يؤول مصيره اليها ولا يشكل اى وجود طبقي خارج شرائح المجتمع العربى من شأنه ان يخلق قيما اجتماعية معينة وانماط للسلوك والتفكير متجانسة فيما بينها ومختلفة مع غيرها بمعنى ادق ان وضع المجتمع العربى بدءا بالاسرة العربية امام ظواهر كالرق والقن سواء من حيث العلاقات الفوقية او اسلوب الانتاج وعلاقاته لا تخلق او توفر الظروف الموضوعية تنافى طبقة خارج تشكيلها التقليدى (٤٣)

ان تطور المجتمع العربى واتساع رقعة الامبراطورية العربية الاسلامية عملية حضارية كبرى لا تقتصر على الجانب الحربى كما يصور ذلك المتحاملون الغربيون، انما لعب وبشكل رئيس الجانب الاخلاقي والفكرى دورا هاما في هذا التطور، وكانت الروحية العربية التي يمتلكها الانسان العربى قد هيات العرب كافة للالتقاء بكل الشعوب والقدرة على تمثيل تراثها وتجاربها وتحضيرها وقيادتها نحو عقيدة موحدة . ويخُصّرُنى قول للعالم الايطالى دوزي (Dozy) عن مؤهلات العرب الفطرية في الحكم والقيادة : «ان العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط بل بالفطرة والغريزة، حتى حققوا بادىء ذى بدء مبادئ الثورة الفرنسية الشريفة وهى الحرية والمساواة والاخاء ... لقد كان البدوى يستمتع بحرية ليس اوسع منها على الارض و يقول «لا اعرف مولى غير مولى العالم» .. ان هذه المبادئ عند العرب هى افضل مما عند الاوربيين ... وربما كانت اخلاق العرب اسمى من اخلاقنا ونفوسهم اكبر من نفوسنا وهم اكثر ميلا الى العظمة الانسانية» (٤٤)

اكتمال مكارم الاخلاق

قلب الاسلام واقع الحياة العربية وحقق قفزة نوعية كبرى امتدت اثارها الى مجاهل المعمورة، فغيرت عقلئ الشعوب وانماط حياتها خلال فترة لا تزيد على القرن، مارس العرب عبرها دور القلئ الكفو، مما يؤكد ان العرب كانوا مؤهلين حضاريا لاستيعاب مبادئ الاسلام المتقدمة والتفاعل معها وانجاز التحولات العظمى في حياة الشعوب (٤٥)

كانت مبادئ الاسلام متلائمة تماما مع خصائص الروح العربية المتين (٤٦) ولم تكن نظرة العرب الى الاسلام نظرة رومانسية، بل كانت واقعية علفشها بكل ابعادها، فكانت اثارها سر يعة وحلسمة في سياق تطورة . وبعد ان ملا الاسلام حياة العرب اصبح قوة تغيير هائلة تحركت في كل الجهات وحررت مئات الملايين من البشر وارست اسس حضارة انسانية مارست الاشعاع طيلة فترة ازدهارها وظلت مبادئها شامخة عندما افل نجمها السياسي .

كانت النظرة العربية الى العرق والطبقة قبل الاسلام تقاليد وعرف وسمات خلقية متوارثة، الى جانب بعض الضوابط الاجتماعية والقانونية التي ظهرت في الفترة الاخيرة، وجاء الاسلام ليكمل هذه الاخلاق . قال رسول الله محمد (ص) :- «انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» .

وبعد التوسع السياسي للدولة العربية الاسلامية والتعرض للامتزاج الكبير مع بقية الأمم الاخرى واستيعاب حضارتها، دعم الاسلام مكارم الاخلاق واطهرها بصيغ كاملة وحولها من مرحلة التقاليد والعادات والسجايا الخلقية الى قوانين شرعية واجبة التنفيذ، وبهذا اصبحت اخلاق العرب الانسانية اخلاق مثلى للامم الاسلامية بفضل الصياغة المبدعة التي حققها الاسلام للجانب الخلفي في المجتمع العربي .

ومن وقفة قصيرة جدا يسمح بها مجال هذه الدراسة نشير الى البعض من هذه المعاني .

يبين الاسلام لجميع البشر ولاول مرة في التاريخ بشكل مدون بأن مسألة الاختلاف في العرق والجنس واللون واللغة مسألة خلقية وطبيعية ولا يقام على اساسها اى اعتبار تمايزى بين الافراد قال تعالى :- «ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك آيات للعاملين» (٢٢- الروم) . وان ثمة معيار جديد للمفاضلة بين الافراد لا يستند الى اسس وراثية او بيئية كما كان سائدا وبالاخص في الحضارات القديمة التي اشرفنا اليها كقوله تعالى :- «ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير» . (١٢- الحجرات) . ولعل هذه الاسس الشاملة منبع لميلاد قيم بشرية جديدة لاعداد للامم بها، وتطو ير

مبدع للقيم العربية المتوارثة.

وأمام حركة التحولات التي يتعرض لها المجتمع العربي الاسلامي برزت بشكل اكثر من السابق عدد من القضايا، فرزتها عمليات الحروب والتوسع الجغرافي والسياسي للدولة العربية كزيادة عدد الرقيق وضم عدد من الاديان الاخرى التي يعترف بها الاسلام وانضواء أمم كثيرة تحت راية الاسلام . وهذه القضايا اقتضت حلول شرعية لتأمين وحدة المجتمع الاسلامي واستقراره وتطوره حدها الاسلام سلفا .

فوضح الاسلام موقفه تجاه ظاهرة الرق بقوله تعالى :- (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل فرضة من الله، والله عليم حكيم) . (٦٠ - التوبة) . ويتبين من هذا ان الاسلام اول دين خصص باب في ميزانية الدولة لمكافحة الرق (٤٧) واتجاه وجود عدد من الاديان السماوية في الارض العربية الاسلامية اعطى الاسلام الحرية المطلقة لاهل الكتاب في ممارسة عباداتهم قال تعالى :- «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن، الا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم، والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون» . (٤٦ - العنكبوت) . اما الناحية الطبقية التي يتوقع الاسلام بروز اشكالها في المجتمع الاسلامي من خلال التوسع السياسي او تطور الحياة الاقتصادية فانه قد تصدى لنقطة انطلاقها وهي الثروة فقال تعالى :- (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم فذوقوا ما كنتم لأنفسكم تكنزون) (٢٤ - ٢٥) . ويعتبر تشريع نظام الوقف من القرارات الهامة التي قابل بها الاسلام التطورات الجديدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية «لتكون الارض او العقار ملكا للمجموع وتصرف في مصارف الخير والاحسان» (٤٨) .

وهناك عدد كبير جدا من الآيات والاحاديث النبوية والممارسات الاسلامية التي تحرم كل المظاهر التي تعبر عن استغلال الانسان لاخيه الانسان أو الاعتقاد بالتمايز والتفرقة العنصرية والاحتكار والربا وكل المعضلات الاخرى طبعت الحياة العامة للحضارات القديمة التي سبقت الاسلام أو عاصرتة .

التطورات اللاحقة في الدولة العربية الاسلامية

كان القرن الهجري الاول غني بعناصر الفورة الحضارية التي اقترنت (بالاسلام) .

فالروابط القومية والدولة الفتية ما برحتا تنهلان من احتياطي غزير من الطاقات العربية التي تتجدد تحت حرارة النضال والحمية والتعصب للوطن والعقيدة الدينية

السماح (٤٩) وعلى ضوء ذلك فإن الاتجاهات التي تظهر خارج نطاق الاتجاه العام لمؤسسة الخلافة والحياة الاجتماعية التي تقترب بنشاطها لأسباب اجتماعية أو سياسية كانت تجد جوها الملائم في الظروف القاهرة التي تتعرض لها مؤسسة الخلافة لمجتمع فتعبر عن نفسها بالشكل الذي تسمح به ظروفها وبالتالى فهي لا تعبر عن جوهر الحياة العربية بقدر ما تجسد طبيعة المشاكل التي تواجه الدولة والمجتمع . وقد أخذ تأثير هذه الاتجاهات يظهر بالتدرج مع ضعف مؤسسة الخلافة وتزايد العناصر الأجنبية المتسلطة عليها وسواء أكان ذلك متمثلاً بحركات اجتماعية وسياسية ترفع شعارات معينة وتطمح بإقامة دولة أو تستهدف الخلافة نفسها أو ماكان متمثلاً بانتقال علاقات انتاجية استغلالية أو نمو العلاقات الانتاجية السائدة في المجتمع نفسه في اتجاه يخرج عن طبيعته السابقة ويتعارض مع المبادئ الإسلامية العامة. كما تظهر هذه الاتجاهات والتطورات في بعض الحركات السياسية والاجتماعية كالخرمية والقرامطة والزنج (٥٠) وفي ظهور بعض الملكيات الكبيرة بعد استصلاح الأراضي الموات والاقطاعات العسكرية في الفترات الأخيرة .

لكن حتى هذه الحالات عند التدقيق العميق في مسياتها نلاحظ ان هناك كفاحاً عظيماً للفكر العربى الاسلامي، تجاه مظاهرها وان هناك ممانعة مستمرة لدى المجتمع من قبول نماذجها السلوكية والانتاجية . ويمكن القول ان ما امكن تسربه الى المجتمع العربى من علاقات العبودية او الاقطاعية بشكل اوسع مما اشرنا اليه من القرن المنزلي السابق انتقل في ظل ميل الحضارة العربية الاسلامية عن قيمتها حتى افولها . وكانت قوة الحضارة العربية واصالتها والتي لن تبرح الارض التي شيدت فيها امجادها - الارض العربيه الحالیه - كما برحت الحضارات السابقة مسارحها وانضوائها في بقع معينة بعد سقوطها، استمر اشعاعها حتى في لحظات الضعف، وظلت العلاقات الانتاجية التي تحمل صفة الاستغلال قلقاً امام طبيعة المجتمع العربى غير قادرة على السيادة . ولهذا فان هذه النماذج قد تعرضت الى تحور وتكيفت مع طبيعة المجتمع العربى الاسلامي . فظهور علاقات الانتاج الاقطاعية بعد السيطرة البويهية على مركز الخلافة في بغداد عام ٣٣٤هـ / ٩٤٥م ثم الدولة الفاطمية في مصر ابداء من عام ٤٤٦هـ وما عقبها من حكم الأيوبيين عام ٥٦٧هـ والمماليك عام ٦٤٦هـ فانها تكيفت وامتصت البيئة العربية جوهرها الاساسي وهو تجريد المنتج من نتائج عمله وحريره، ذلك ان اشكال الاقطاع التي انتشرت في بلاد العراق والشام ومصر كانت اقطاعاً عسكرياً لا يقوم على اساس ملكية الارض ومن فيها، وانما كان الخليفة او السلطان يمنح الارض الى القواد ورؤساء القبائل العاملين في خدمة الأمن القومي لكي يجنوا عوائدها من وارد الضرائب كراتب سنوي (٥١) وقد تبين ان الاقطاعات التي استخدم فيها العبيد

المجلوبون كانوا يدر بون و يحررون و يعملون في الارض كاحرار ولا تحدهم عن الاندماج في المجتمع اى قيود، فدولة الممالك «استندت سلطتها الى رقيق مجلوبين يدر بون و يحررون بعدئذ، و يحتكرون السلطة، و بذلك كونوا طبقة ارسقراطية اجنبية حاكمة فوق سكان البلاد» (٥٢)

آراء الباحثين الغربيين«وقفة قصيرة».

يضاف الى ثبت الحقائق في التاريخ والتراث العربي الاسلامي عدد من آراء الباحثين الاجانب، اذ درس عدد من المستشرقين المنصفين التراث العربي الاسلامي واهتم عدد آخر منهم بالحياة العربية فقاموا بدراسات ميدانية ابتداء من القرن التاسع عشر فبهرهم الخلق العربي كما بهرتهم حضارة العرب وعقلهم السياسي (٥٣)

وقد اشرنا الى عدد من آراء هؤلاء الباحثين وهنا نذكر البعض منهم ممن اهتموا بالدراسات الميدانية . وقد دعم «لوبيون دراسته العميقة عن الحضارة العربية بأراء ونتائج تجارب عدد من الباحثين امثال «بلغريف» الباحثة الانكليزية السيدة «بلنت» و «مسيوشارم» «ومسيودوفوجاني» «والكاتب الانكليزي «ج كوبر» وغيرهم كثيرين .

فميز «لوبيون» كيف تختلف ظاهرة الرق عند العرب والمسلمين عن مثيلاتها لدى الأمم الاخرى اذ قال : (فالأرقاء في الشرق يؤلفون جزءا من الأسر، و يستطيعون الزواج ببنات ساداتهم احيانا، كما رأينا في ذلك سابقا، و يقدر ان يتسمنوا على الرتب وفي الشرق لا يرون في الرق عارا، والرقيق له اكثر من صلة بيده من صلة الاجير في بلادنا، اما الباحثة الانكليزية السيدة «بلنت» التي دعمت دراستها بزيارات ميدانية للمواقع الأثرية والمجتمعات في الجزيرة العربية تقول عن كتاب رحلتها الى نجد «ومن الأمور المشهورة عن الأرقاء عند العرب يكونون من الأبناء المدللين اكثر من ان يكونوا من الاجراء» (٥٤)

ويذكر مسيو «أبو» عن الاندماج الكبير للرق في الحياة العربية والمكانة التي بلغها في مؤسسات الدولة «لايكاد المسلمون ينظرون الى الرقيق بعين الاحتقار فان امهات سلاطين آل عثمان وهم زعماء الاسلام المحترمون من الاماء ولا يرون في ذلك ما يحط من قدرتهم» (٥٥)

الآثار الحضارية في الايديولوجيات الحديثة

انتجت الحضارات القديمة التي عاصرت العرب قبل الاسلام وبعده انتجت المجتمع الغربي وطلأتم فكرة الامبريالي والصهيونية . وانتجت الحضارة العربية الاسلامية المجتمع العربي المعاصر وطلأتم فكرة القومي الانساني، والفصيل الذي

ميز بين جوهر النظام الاجتماعى للحضارتين العربية واليونانية هو عينه الذي يميز الآن الايدولوجية العربية عن الايدولوجية الامبريالية - الصهيونية، اذ ظل الفكر الغربى بالرغم من التطور التقني الكبير من الجوانب المادية ظل اسير عناصر حضارته القديمه . كما بدء الغرب عصر نهضة بهجمة جديدة على العالم من خلال حركة الاستكشافات ثم الاستعمار، فكان ثمرة التطور الحديث هو الامبريالية والصهيونية والتفرقة العنصرية . وبينما تصل اوربا وامريكا الآن قمة الحضارة المادية وتمتلك القوة الحربية والاقتصادية في العالم تحمل ايدولوجيتها ظلما لشعوبها^(٥٦) وشعوب العالم الاخرى وتتصرف بطمع في ثروات الشعوب وموارد العالم الحره كما تتفاوض بمنطق القوة ومبدأ الغلب مع الآخرين الضعفاء و يحزن العالم امام هذه الميول و يثقل تطور الشعوب باعباء هذه الافكار . وهذه الاتجاهات تخطوى على عرقيه اصيلة وروح توسعية اعتدائية تعد شكلا جديدا لصور انجور القديم الذى ملأت به حضارتهم القديمة تاريخ البشر^(٥٧) .

وفي الجانب الآخر يقف المشرقيون وفي مقدمتهم العرب يرفعون من واقع التخلف والتجزئة السياسية نداء الانسانية و يطالبون بالعدل والاخاء وتسمع عناصر الايدولوجية العربية بالرغم من (احتياجاتها الى الصياغة المتكاملة) وتقف متمسكة باصالتها الانسانية وطبيعتها الرحبة متخطية كل ردود الفعل التي يولدها النظام الامبريالي - الصهيوني ووسائل وجوده الاخرى . ويستمر الشرق والغرب الآن يتقابلان في الساحة الحضارية يعرضان نتائج بيناتهم المادية والذهنية مرة بالصراع المادى التناحرى واخرى من خلال الصراع العقائدى، وانه مما لا يخالف المنطق ان الافكار التي تنمي الحواجز بين الأمم وتولد الصراع والتوتر بين فئات المجتمع هى افكار يقف التاريخ ضدها ويظل يحمل المجتمع (أى مجتمع) عداً مبطناً احياناً وظاهراً احياناً اخرى ضدها .^(٥٨)

وان مصادر الظلم في التاريخ كما دون التاريخ البشرى لن تظل مصادر لظلم طويل، فطبيعة التطور تحمل قدراً كبيراً لحرية الانسان وتفتح آفاق واسعة نحو مصادر الخير والاخاء في التاريخ، وهو المبرر الاكبر لشروق الحضارة العربية واحتياطي البشرية الانساني .

الحواشى

(١) : د. مصطفى الخشاب - علم الاجتماع الحديث ومدارسه، دار الكتاب العربى القاهرة، سنة ١٩٦٧ ص ١٦٠ - ١٦٦ .

(٢) : د. حسن شحاته سعيان - أسس علم الاجتماع . دار النهضة العربية القاهرة ط ٧ سنة ١٩٦٨ ص ٢١٢ .

- (٣) : انظر بحثنا المنشور في مجلة الثقافة العربية الليبية بعنوان «الامبريالية من خلال الرؤية العربية الاعداد ٩٥-٩٧ عام ١٩٧٧.
- (٤) : د. عبد الحميد بخيت - المجتمع العربي الاسلامي، دار المعارف بمصر ج ١ ط ١ سنة ١٩٦٥ ص ١٠٨.

(٥) See, Karl Marx, Selected Writings in Sociology and Philosophy, Edited by Bottomore and Rubel, London, P. 132.

- (٦) انظر: د. يسرى الجوهري - الانسان وسلالاته . منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٣٢.
- (٧) : د. السيد محمد بدوى - نظريات ومذاهب اجتماعية . دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ ص ١٢-٢١.
- (٨) : د. محمد السيد غلاب - البيئة والمجتمع، مكتبة الانكلو المصرية ط ٤ سنة ١٩٦٩.
- (٩) : د. حسن الساعاتي - علم الاجتماع الخلدوني وقواعد المنهج . دار النهضة العربية بيروت ط ١ سنة ١٩٧٢ ص ٢٨.
- (١٠) : البان و يدجيرى : المذاهب الكبرى في التاريخ . ترجمة ذوقان فرفوطه دار القلم بيروت سنة ١٩٧٢ ص ٩٦.
- (١١) : ارنولد توينبي : دراسة التاريخ سنة ١٩٢٤ مج ١ ص ٩٥ (ثبت و يدجيرى . المذاهب الكبرى).
- (١٢) مقدمة ابن خلدون . مراجعة لجنة من الجامعيين . مطبعة الكشاف بيروت . ج ١ ص ٨٨.

- (١٣) : مقدمة ابن خلدون، نفس المصدر ص ٨٢-٨٥
- (١٤) : انظر : د. علاء الدين البياتي - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، دار التربية بغداد ط ١ سنة ١٩٧٥ ص ٦٨ و ٦٩ يشير الى ابن خلدون لم ينته كعلماء الايكولوجيا والمرفولوجيا (الجغرافيه الاجتماعيه) الى حتمية صارمه ذلك عندما اكد على قدرات الانسان في احداث الاثر على الطبيعة . وبالتالي فليس العوامل البيئية السبب الوحيد في انتاج الصفات الانسانية .
- (١٥) انظر : د. جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . بيروت ط ١ سنة ١٩٦٨ ج ١ ص ٢٦١ - ٢٩٣ .

- (١٦) : بل ان عددا كبيرا من المؤرخين والباحثين يجمع بين اسباب تدهور الدوله العربية في عامل واحد هو (اخلاق الفرد) كما اعتبروا ان العرب اقاموا على الاخلاق حضارة ودوله .
- انظر : د. ابراهيم احمد رزقانه : المجتمع العربي . النهضة العربية . القايره سنة ١٩٦٨ ص ٢٥٨

- (١٧) : انظر : د. يسرى الجوهري - الانسان وسلالاته . منشأة معارف الاسكندرية ص ٢٨
- (١٨) : غوستاف لوبون : حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر . مطبعة الحلبي وشركاه سنة ١٩٦٩ ص ٦٢

- (١٩) لوبون نفس المصدر ص ٥٧.
- (٢٠) د. جواد علي : المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام . بيروت ط ١ سنة ١٩٦٨ ج ١ ص ٢٧١ .
- (٢١) انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر تنقيح شارل بلا . طبعة بربريه الاقوياء . وفي عصر دي مينار و باقيه دين كرتاري . بيروت ج ١ سنة ١٩٦٦ ص ٢٨٦
- (٢٢) كذلك د. عبد الحميد بخيت : المجتمع العربي والاسلامي - دار المعارف بمصر . ج ١ ط ١ سنة ١٩٦٥ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .
- (٢٣) كريستنن نفس المصدر ص ٨
- (٢٤) نفس المصدر ص ٧
- (٢٥) د. ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية . دار الثقافة . بيروت . ط ٢ سنة ١٩٧٥ ص ٢٨ .
- (٢٦) د. يونس البطريق : الدعوة القومية في المجتمع العربي . دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٦٦ ص ٤٥ .
- (٢٧) أ. بترى : مدخل الى تاريخ الاغريق وادبهم وأثارهم : ترجمة د. نوثيل يوسف عزيز . الموصل . ص ١٤
- (٢٨) انظر : فؤاد محمد شبل : الفكر السياسي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ج ١ سنة ١٩٧٤ الصفحات من ١١٢ - ١٢٣ حول ارسطو . ويشير الى نظراته الى الرقيق (و يعتبر ارسطو الرقيق حيازه وصفحه بالحياة وهو لديه اهم انواع الحيازه) ص ١٢٧
- (٢٩) اريك رول : تاريخ الفكر الاقتصادي : ترجمة د. راشد البراوي . دار الكتاب العربي . القاهرة . سنة ١٩٦٨ ص ٣٥ .
- (٣٠) د. محمد عبد المنعم خفاجي : الاسلام ونظر يته الاقتصادية . دار الكتاب اللبناني بيروت . ١ ط سنة ١٩٧٣ ص ٣١ - ٣٢
- (٣١) د. اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية . دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ ص ٤٢ .
- (٣٢) د. اسحق عبيد نفس المصدر ص ٤٣
- (٣٣) اريك رول : تاريخ الفكر الاقتصادي : ترجمة د. راشد البراوي : دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٨ ص ٣٤ .
- (٣٤) د. عبد القادر اليوسف : الامبراطورية البيزنطية . المكتبة المصرية . بيروت سنة ١٩٦٦ ص ٢٣ .
- (٣٥) انظر احمد الشيباني في ترجمته لمؤلف تدهور الحضارة الغربية ص ٢٥
- (٣٦) حنا خباز : المعارك الفاصلة في التاريخ . دار الكتاب العربي . بيروت ط ٢ سنة ١٩٥٩ ص ٤١ .
- (٣٧) انظر : بلاد العرب من جغرافية سترابون حوالي ٦٦ ق.م - ٢٤٠ ب.م . مط ١ لجيرا ابراهيم حنا . مجلة المجتمع العلمي العراقي مجله سنة ١٩٥٢ مطبعة التفيض ص ٢٤٨ .

(٣٨) : عدد من الاساتذة السوفيت : تشكيلات ما قبل الرأسمالية . اصدار جامعة لومومبا في الاتحاد السوفياتي ج ١ ص ٩٥ .

(٣٩) : د. ناجي معروف : اصاله الحضارة العربية . دار الثقافة . بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٥ ص ١٣٩ .

(٤٠) : انظر : ابراهيم كبه (نظرية سايرمان حول سقوط النظام العبودي) مجلة الاقتصادى بغداد عدد ٣ سنة ١٩٧٠ ص ١٧٩ - ١٨٤ .

(٤١) : احمد العدوي : المجتمع العربي . مطبعة الانكلو - المصرية القاهرة سنة ١٩٦٨ ص ٧٩ .

(٤٢) : انور الجندي : الانسان العربي والقار يخ . دار الفكر سنة ١٩٧١ ص ٥٥

(٤٣) : انور الجندي : اصاله الحضارة العربية . دار الثقافة بيروت . ط ٢ سنة ١٩٧٥ ص ١٣٩

(٤٤) : د. عبد العزيز الدوري : مقدمة في القار يخ الاقتصادى العربي . دار الطليعة ط ١ سنة ١٩٦٩ ص ٤٠ وللتوسع اقرأ الفقرة .

(٤٥) : محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ثبت ناجي معروف / اصاله الحضارة ص ٢٧٥ .

(٤٦) : غوستاف لويون / حضارة العرب مصدر سابق ص ٨٧

(٤٧) : انظر مورو بييرجر : العالم العربي اليوم . ترجمة محي الدين محمد مطبعة سميا . بيروت . ط ١ سنة ١٩٦٣ ص ٤٩ .

(٤٨) : ناجي معروف : اصاله الحضارة العربية . دار الثقافة . بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٥ ص ٢٧٥

(٢) : د. محمد عبد المنعم خفاجي : الاسلام ونظر يته الاقتصادية . دار الكتاب اللبناني بيروت ط ١ سنة ١٩٧٣ ص ٢٠

(٤٩) : د. محمد عابد الجابري : العطية والدولة معالم نظرية ابن خلدون في القار يخ الاسلامي . دار الثقافة، الدار البيضاء ط ١ سنة ١٩٧٠ ص ٢٧١ - ٢٢٧ .

(٥٠) : انظر : أ. عبد العزيز الدوري : مقدمه في القار يخ الاقتصادى العربي . دار الطليعة بيروت . ط ١ سنه ١٩٦٩ ص ٧٣ . فيرى الدوري ان الزنج بالاساس عبيد جلبهم التجار لزراعة النخيل في البصرة وكانوا جماعة معزولة عن المجتمع، وظلوا هكذا غرباء عنه حتى انهم لا يعرفون اللغة العربية . وهذا يعني ان وجودهم لا يشكل نموذج اجتماعيا عاما انما حنة خاصة بهم .

ب - ويشير الدكتور - عبد الجبار ناجي - كيف استثمر صاحب الزنج ظروفهم الاجتماعية ليحقق اهدافه بعيدا عن تطلعاتهم حتى «تفلشت قلوب الزنج وساءت احوالهم وهم بالوثوب عليه»

مجلة المورد المجلد الاول العددان الثالث والرابع سنة ١٩٧٢ تحت عنوان « صاحب الزنج الثائر
الشاعر ص ٢١

(٥١) : د. الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي مصدر سابق ص ١٠٦، ١٠٥
(٥٢) : نفس المصدر ص ١٠٥

(٥٣) اندريه ايماروزمليه : تاريخ الحضارات العام «الشرق واليونان القديمه» ترجمة
فريد م. داغر . منشورات دارعو يدان . بيروت سنة ٩٦٤ ص ٢٩، ٣٠ .
(٥٤) : غوستان لوبدن — حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر — مطبعة الحلبي سنة ١٩٦٩ ص
٣٨٢

(٥٥) نفس المصدر ص ٣٧٨

(٥٦) : مصدر سابق ص ٣٧٦

(٥٧) : د. ابراهيم العدوي : المجتمع العربي . مكتبة الانكلو — المصرية . القاهرة سنة ١٩٦٨
ص ١ — ١١ .

H. V. Savitch, **Racism and Inequality** : W. H. Freenian, San Francisco, (٥٨)
1975, part one.

